

الحرب الطيبية ضد الحركة الكاثارية في جنوب فرنسا (1209-1256م)

د. أبو عمران سامية
أستاذة محاضرة في التاريخ الوسيط
جامعة بوزريعة-الجزائر 2

ملخص:

يمثل القرنان 12 و 13م في تاريخ فرنسا فترة حافلة بالاختلافات الدينية والسياسية، حيث تعددت الطوائف والفرق، البعض منها موروث من الماضي، والبعض الآخر حديث وهي لا تقل خطورة من الأولى.

وتعود أسباب نشأة هذه الطوائف والفرق إلى رغبة دينية في الإصلاح. فظهرت أولاً في الكنيسة الرسمية ثم في صورة غريبة وخطيرة على الكنيسة والمجتمع في ذلك العصر.

وأشهر هذه الطوائف والفرق في جنوب فرنسا، فرقة الكاثاريين أو الألبيجنسيين. يرى بعض المؤرخين مثل جيرو (Guiraud)⁽¹⁾ أن هذه الفرقة بدعة، ويرى آخرون مثل نيل⁽²⁾ (Niel) أنها ديانة جديدة، حيث يقول : " تعتبر هذه الهرطقة دينا جديدا وعظيما يختلف عن التين المسيحي تمام الاختلاف". ويبدو أن أصول هذا التين قديمة جداً، ولولا محاربة الكنيسة والسلطة السياسية له لكان حقاً من أكبر الأديان.

(1). أنظر : Guiraud J., *Histoire de l'Inquisition au moyen âge*, p.169

(2). أنظر : Niel F., *Albigens et cathares*, p.45

يجهل الكثير من الناس تاريخ الكاثاريين أو الألبيجنسيين، ويعود هذا إلى عدة أسباب منها : أن الوثائق الموجودة عنهم حررت باللغة اللاتينية، وأن خصوم الكاثاريين هم الذين تولوا تسجيل الأحداث وهم مسجلو محاكم التفتيش، أما عن المصادر الكاثارية فلم يصلنا منها سوى كتاب لهم في الطقوس وترجمة " للعهد الجديد " باللغة المحلية* فيضطر الدارس إلى تحقيق الروايات التي أوردها خصوم الكاثاريين.

ما زالت أصول طائفة الألبيجنسيين أو الكاثاريين نشير النقاش بين المؤرخين، فحسب البعض⁽¹⁾ تعود هذه الطائفة إلى الجماعات المانوية (manichéens) والغنوصية⁽²⁾ (gnostiques) التي ظهرت في القرون المسيحية الأولى وبقي لها بعض الأنصار السريين في شمال إيطاليا وجنوب فرنسا بالرغم من محاربة السلطات الكنسية والمدنية لها. وحسب البعض الآخر⁽³⁾ تعود طائفة الكاثاريين إلى جماعة البوليس (Pauliciens)⁽⁴⁾ أو جماعة البوغميليين

* لغة جنوب فرنسا أو البروفنسالية.

(1) أنظر Oldenbourg Z., *Le bûcher de Montségur*, p. 85.

(2) تنتشر مذهب الغنوصية في القرنين 2 و 3م ويعتقد الغنوصية أن العقل البشري قادر على معرفة الحقائق الإلهية وأن الحقيقة واحدة. فالناس في نظرهم 3 مراتب: العارفين وإخلاصهم بالحكمة - المؤمنين وإخلاصهم بالإيمان - الجهال وهم مالكون لا محالة

(3) أنظر Lavissee E., *Histoire générale de France*, p. 149.

(4) البوليس (Pauliciens) طائفة دينية ظهرت في القرن السابع الميلادي في سوريا، وديانتها ثنائية وهم من أنصار ماني والمانوية. يرفضون العهد القديم. عزلوا سنة 752م من سوريا من طرف الحملة البيزنطية ولجئوا إلى بلغاريا حيث أثروا على طائفة البوغميل. وكان مصيرهم في بلغاريا مصير الكاثار في فرنسا. أنظر Pike E. Royston, *Dictionnaire des religions*, p.247.

(Bogomiles) ⁽¹⁾ البلغار الذين انتشر مذهبهم في غرب أوروبا عن طريق أنصار من البلغاريين منذ القرن السادس الميلادي.

والأمر الذي لاشك فيه ، هو أن هذا الاختلاف في رأي المؤرخين في تحديد أصل المعتقد الكاثاري الألبيجنسي مرجعه إلى اتفاق هذا المعتقد مع معتقدات الغنوصيين والبوليس أو البوغمليين التي سبقته في القول بوجود عالمين مختلفين إحداهما من خلق الله وهو عالم الأرواح الطاهرة، وثانيهما من خلق الشيطان وهو عالم المادة الشريرة. وجميع هذه المذاهب تؤمن بثنائية الخالق، وهو إيمان قريب من إيمان المانوي القائل بأن عالما الذي نعيش فيه يتألف من عنصرين هما عنصر الخير وعنصر الشر، ولكنه قريب أيضا إلى النزعة أو المذهب الأريوسي (arianisme) الذي انتشر في القرن الرابع الميلادي رافضا ألوهية المسيح و لهذا اعتبرته الكنيسة الكاثوليكية هرطقة و حاربتة.

والألبيجنسيون (Albigens) طائفة مسيحية من أهالي إقليم لانجودوك (Languedoc) بجنوب فرنسا - اعتنق أفرادها- في القرنين الميلاديين 12 و 13- مجموعة من العقائد التي عدتها الكنيسة الكاثوليكية، المهيمنة على فرنسا، بدعة وخروجا على العقيدة المسيحية نفسها، ودعت أصحابها بالهرطقة أي أصحاب بدعة في الدين، ثم وجهت في عهد رئيسها البابا أنوسنت الثالث (1216-1189 Innocent III) ضدهم حربا غير شريفة انتهت تقريبا من إبادتهم، وهو ما سوف نوضحه في بحثنا هذا.

ويبدو أن تسميتهم بالألبيجنسيين نسبة إلى مدينة ألبى (Albi) اللانجودوكية الواقعة بالقرب من مدينة تولوزة (Toulouse) مركز لرناستهم. ولكن أطلق عليهم

⁽¹⁾ البوغمليين (Bogomiles) طائفة دينية ظهرت في البلقان وانتشرت خاصة في بلغاريا في القرن 12م. تأثروا بالبوليس ويعتقدون أن كل من الشيطان والمسيح ابن الله. انتشروا كذلك في أوروبا الغربية. Pike E.R., op.cit., p.47.

اسم آخر، هو الكاثاريون (Cathares) وهو اسم مشتق من الكلمة اليونانية كاثروس (catharos) ومعناها المتطهر، لأن أهم ما كانوا يدعون إليه ضرورة التطهير أو الطهارة الكاملة من الذنوب للانتقال من عالم المادة الشرير إلى عالم الروح الطاهر الذي يملكه الله. هذا وقد أطلق عليهم البعض اسم المانويين الجدد -néo-manichéens) على زعم أن مذهبهم ما هو إلا شكل من أشكال المانوية (1) (manichéisme). وعلى ما يظهر فمن الصعب معرفة التاريخ الحقيقي لطائفة الالبيجنسين لأن جميع الوثائق المعاصرة لا تتضمن سوى اتهامات أعدائهم لهم، أما هم فلم يصلنا من كتاباتهم إلا كتاب واحد في الطقوس، وترجمة للعهد الجديد من الكتاب المقدس باللغة المحلية، وليس معنى ذلك أننا ننكر هذه الاتهامات جملة وتفصيلاً، و يمكن أن يكون جلها صحيحاً وإلا ما كانت الكنيسة قد تحمست لقتالهم. بالرغم من كونهم مجموعة من عامة الناس لولم يتطلوا عليها أو على رئاستها في روما، ولكننا من جهة أخرى لا يمكننا أن نسلم بها بسهولة في غياب أقوال أولئك الذين رموا بها دفاعاً عن أنفسهم، وهي أقوال كانت موجودة ولا شك في مؤلفات البيجنسية أبيدت خلال أعمال العنف ضدهم خلال الحملة الصليبية التي رماهم بها البابا أنوسنت الثالث وبعدها، كما أن لهم أقوال سجلت في محاضر جلسات محاكم التفتيش التي عقدت لمحاكمتهم بعد الحملة، ولكن لا يمكن الوثوق بها طالما أن الأيدي التي كتبتها هي أيدي خصومهم.

يرى الكاثاريون أن الإله رحيم طيب وكامل وأعماله مثله كلها خير، لأن الشجرة الطيبة لا تعطي إلا ثمرًا طيبًا. أما الشر الموجود في العالم فإن مصدره في نظرهم المادة وليس الإله (2). فهم يرون مثلاً أن المياه هي التي تسبب الفرق والخراب، والريح تؤدي لا محالة إلى العواصف والزوابع، والنار تتسبب في إحراق

(1) . المانوية: مذهب ماني (Mani) الفارسي الذي عاش في القرن 3 م، ويقول ماني أن العالم مبني على أحدهما النور وهو مبدأ الخير والآخر الظلام وهو مبدأ الشر، وكل واحد منهما مستقل عن الآخر ومنزاع له. أنظر Pike E.R., op.cit., p.45.

(2) أنظر . Guiraud J., *Histoire de l'Inquisition*, t.1, p. 358.

بيوت المسكين، والكثير من الحيوانات لا تستطيع أن تعيش إلا بفقراس حيوانات أخرى (1) ...

إن الله في نظرهم يمثل مبدأ الخير، وهو الذي خلق عالم الأرواح الطاهرة وهو الإله الطيب الذي يظهر في "العهد الجديد"، أما له "العهد القديم" فهو الجبار المحب للقتال (2).

و يرى الكاثاريون الأليجنسيون أيضاً أن العالم الذي نعيش فيه من صنع الشيطان وكل ما فيه خطأ وظلم، إن الله خلق الأرواح وجعلها حسنة، ولكن الشيطان جنبها إلى الأجسام وحبسها فيها والخطأ يأتي من هذه الأجسام المادية وليس من الأرواح التي جاء المسيح لتحريرها وبناء على هذه الفلسفة يرى الكاثاريون أن البشر قسمان، قسم الطاهرين (purs) أو الكاملين (parfaits) الذين يشاركون من خلاص نفوس الناس و يصلون إلى السعادة الأبدية، و قسم الأشرار ذوي الطبيعة السيئة التي لا تقبل الطهارة.

و يرون أيضاً رفض كل سلطة سواء كانت دينية أو دنيوية إلا سلطة الذين ينتخبونهم من فئة الكاملين. كما يرون تجريم المادة وكل ما يتعلق بها لأنها مصدر الشر والخطأ. وهكذا فإنهم يحرمون أكل اللحوم وخاصة أنهم يؤمنون كالبيونيين بتناسخ الأرواح. وينادون بعدم الزواج لأنه يعطل مجهودات الطاهرين لتخليص الأرواح من عبودية الأجسام الشريرة وذلك بتسببه في الإكثار باستمرار من هذه الأجسام. كما يحرمون الملكية الخاصة وتعظيم الصليب و تقديس الصور وبناء الكنائس. وللكاثاريين تعديد خاص يسمونه "الكونسلمنت" (3) (consolamentum) فهو تعديد روحي وليس بالماء، وبمقتضاه يتحول الكاثاري العادي إلى درجة

(1) انظر Oldenbourg Z., op. cit., p. 348.

(2) انظر Guiraud J., op. cit., p. 160.

(3) انظر Ibid., p. 361.

الطهارة أي يتحول من فئة الكاثاريين المؤمنين، وهي الفئة الأدنى، إلى فئة الطاهرين أو الكاملين، وهي الفئة الأعلى ومنها يختار رجال الدين (1).

و المعروف عن الكاثاريين الألبيجنسيين أيضا أنهم يفضلون حياة الزهد والتشفي، وبها اشتهر الزعماء "الطاهرون" الذين يصومون أربعين يوما ثلاث مرات في السنة (2). أما جماعة المؤمنين فليست لهم نفس القواعد في الحياة إذ يستطيعون الزواج ويصح لهم أن يمتلكوا أراضي، وأن يتاجروا، وأن يقوموا بمهن أخرى ولكن عليهم أن يصوموا ثلاثة أيام في الأسبوع (3). ولقد اتخذ الكاثاريون الألبيجنسيون من عظمة المسيح أساسا لمبادئهم، ولذا كانوا يعلمون الناس بأن يحبوا أعداءهم وأن يعتنوا بالمرضى والفقراء، وكانوا يقولون بأن العف يتنافى مع الخلق الكريم حتى ولو كان موجهاً للأعداء، وأن عقوبة الإعدام من أكبر الجرائم، وعلى الإنسان أن يتأكد بأن الله سوف ينتصر في النهاية على الشر من غير أن يستخدم وسائل شريرة.

وأهم ما اتهموا به من التهم الخطيرة إلى جانب اعتقادهم بثنائية الخالق، قولهم بأن المسيح من الملائكة وأنهم كانوا يعملون لمنع شقاء الإنسان من مرضه. فإذا شفى المريض من مرض خطير أقنعوه بالانتحار ليعجل لنفسه التحرر ودخول السماء. وكانوا أحيانا يقتلون المريض خنقا برضاه. واتهموا أيضا بقولهم عن رجال الدين الكاثوليك أنهم مجموعة من الخونة الكاذبين المنافقين، وبأن جماعة منهم صوروا العذراء في صورة قبيحة عوراء مشوهة، و كانوا يسمون الكنائس الكاثوليك بمعششت اللصوص، وغير ذلك من التهم (4).

(1) أنظر Ibid., p. 270

(2) أنظر Ibid, p. 47 ; Oldenbourg (Z.), op.cit., p. 63

(3) أنظر Madaule J., *Le drame albigeois*, p. 35

(4) أنظر ويل ديورانت، قصة الحضارة، ص 140.

وينتظم الكاثاريون في كنائس، وينتخبون أساقفتهم من بين فئة الطاهرين أو الكاملين منهم. وكان لكل مقاطعة في إقليم لانجدوك أسقفها الذي يشرف عليها. كما كان لكل مدينة مسؤول ديني و مساعده من مجموعة الطاهرين فيها ⁽¹⁾. وكان أفراد جماعة المؤمنين في كل مدينة يتولون خدمة الكنيسة وتمويلها. كان الأغنياء منهم يقومون بتمويل مؤسساتهم العامة، أما أفراد الطبقة الوسطى منهم فقد تولوا مهمة التبشير، و نشر العقيدة في الأواسط الشعبية. و لم يكن نشاطهم مقتصرًا على بناء الكنائس أو- كما كان يسمونها المنازل للاجتماع- ولكنه امتد أيضًا إلى بناء المدارس والمستشفيات للمساكين والأديرة للرجال والنساء. فقد تولت بعض الطاهرات الثريات النفقة على بعض المؤسسات وعاشت بعضهم في قلاع محصنة، وقام الكاثاريون كذلك بتأسيس الجمعيات التعاونية للكثير من العمال وأمهات تعاونيات النسيج ⁽²⁾.

ومما يدل على انتشار المذهب الكاثاري بسرعة فائقة في إقليم لانجدوك بجنوب فرنسا، تلك الرسالة التي بعث بها الكونت ريموند الخامس (Raymond V) سيد تولوزة إلى رئيس دير سيتو (Cîteaux) الكاثوليكي في عام 1177 م و مما جاء فيها : "لقد انتشرت هذه الهرطقة في كل ناحية وفرقت بين الرجل والمرأة، والأب والابن والبنات والأم وأصبحت الكنائس خاوية لم يعد يدخلها أحد، وأنا المسؤول في النظام الديني هنا، أحاول أن أجد حلاً للقضاء على البدعة ولكني لست قادرًا على إبادتها لأنها جلبت إليها أغلبية أتباعي وشعبي، وأريد مساعدتك ونصيحتك لإبعاد هذه الهرطقة من بلادي، وعلمنا أن نستعمل العنف ضدهم لأنها الوسيلة الوحيدة " ... ⁽³⁾

⁽¹⁾ أنظر Guiraud J., op. cit., p. 49

⁽²⁾ أنظر Niel F., op.cit p.49 ; Oldenbourg Z, op.cit., p. 63

⁽³⁾ أنظر Dom Vaissète , *Histoire générale du Languedoc*, t.3, p. 67 ; Guiraud J., op. Cit., p. 350

لم تكن تمثل العقيدة الكاثارية في جنوب فرنسا خطراً على الأخلاق العامة أو على الحياة الاجتماعية أو على السلطات المدنية فحسب، بل كانت خطراً أيضاً على الكنيسة الكاثوليكية في مصالحها المادية وفي سلطتها وامتيازاتها وروحانياتها جميعاً⁽¹⁾. وقد رأت الكنيسة أن تبدأ أولاً في الرد على هذه البدعة باستعمال وسيلة الإقناع⁽²⁾. فإذا أبى صاحب البدعة الكاثاري الرجوع للمسيحية القومية كما تؤمن بها الكنيسة الكاثوليكية أصدرت ضده قرار الحرمان والقطع عن الكنيسة والمجتمع⁽³⁾.

و من بين الأساقفة الذين حاولوا إقناع الألبيجنيين بالكف عما هم فيه، أسقف مدينة شارتر (Chartres) الذي لم يلبث أن فشل أمام أحرار أصحاب البدعة على التمسك بمعتقدهم، فكتب إلى البابا ألكسندر الثالث (Alexandre 1181-1159 III) في عام 1172، قائلاً: "لقد عمت الهرطقة إقليم لا نجدوك، فلم يبق لدينا مؤمنون، ولا للمؤمنين أساقفة، ولا أرى غير مسيحيين بلا مسيح".⁽⁴⁾

ولقد تكررت حملات الإقناع التي أرسلها البابا ألكسندر الثالث إلى إقليم لانجدوك وأخرها البعثة الإقناعية التي أرسلها في سنة 1179، ولكن سكان الإقليم رأوا فيها تدخلاً أجنبياً من قبل سلطة أجنبية، هي سلطة بابا روما، وبالتالي ازداد تعلقهم بالمذهب الكاثاري.

وأمام هذا الفشل المتكرر، عزم البابا ألكسندر الثالث على أن يستعين بنفوذ وقوات الأمراء والملوك الكاثوليك للقضاء على الهرطقة¹ في جنوب فرنسا، حيث

(1) أنظر. Oldenbourg Z, op. cit., p. 71

(2) أنظر [De Puylaurens G., op.cit., p. 203]

(3) أنظر Chédeville A., op.cit., p. 49 ; Guiraud J., op.cit., p. 333

(4) أنظر Niel, Duvernoy, Roché, 1965, *Les Cathares*, p. 40

كثرت الهراطقة بدرجة كبيرة في مقاطعات "غسقونيا" (Gascogne) و"ألبي" (Albi) وتولوز (Toulouse) وما جاورها، *وإننا نعلم أنهم ملعونون*. ولم يلبث البابا الكسندر الثالث أن أصدر منشورًا بابويًا أمر فيه السلطات الكنسية والمدنية على السواء بأن تشن حملة قمع ضد الهراطقة الكاثاريين ⁽¹⁾. وكان أن قام بطرس رئيس دير كليرفو (Clairvaux) على الفور بتجنيد قوة من الأهالي الكاثوليك المتعصبين، حاصر بها مدينة لافور (Lavaur) التي كانت تمثل أهم مراكز الكاثارية في إقليم لانجوك.

وطالب البطرس من سكانها أن يسلموا له الهراطقة الألبيجنسيين مقابل فك الحصار عن مدينتهم. ولكن السكان رفضوا طلبه و اضطروا إلى رفع الحصار عن مدينتهم ⁽²⁾ و العودة إلى دير خاتبا عام 1181. وقد حاول البابا ألكسندر الثالث بعد ذلك أن يدفع الأمير ريموند الخامس كونت تولوزة بصفته أعلى سلطة مدنية في جنوب فرنسا إلى شن حرب لا هوادة فيها ضد الكاثاريين من رعاياه. ولكن كونت تولوزة لم يستجب لنداء البابا شأنه شأن سائر السادة الإقطاعيين في المنطقة الذين لم يحركوا ساكنا ضد الألبيجنسيين رغم إلحاح الكنيسة عليهم بل أكثر من ذلك فلقد بذل جميع هؤلاء السادة الإقطاعيين ⁽³⁾ و على رأسهم كونت تولوزة جهدا من أجل إيجاد قياس سلمي بين أنصار الكاثوليكية و الكاثارية في أقاليم فرنسا الجنوبية واحتضنهم بوطنهم و دافعوا عنه بسبب حقدهم على رجال الدين الكاثوليك.

و إذا كان الكونت ريموند الخامس قد قام بعد ذلك تحت ضغط التهديد البابوي بحملة ضد أنصار الكاثاريين في مدينة "ألبي" فقد انتهت هذه الحملة إلى الفشل و ازدادت الكاثارية انتشارا في مختلف مناطق الجنوب.

(1) أنظر Ibid, op.cit., p. 41 ; Pierre des Vaux de Cernay, 1973 ,*Historia Albigensis*,p. 72

(2) . أنظر Des Vaux de Cernay P., op.cit., p. 73

(3) Griffe E., *Les débuts de l'aventure cathare au Languedoc*,p.79

كان هذا من جانب السلطة المدنية الإقطاعية في جنوب فرنسا. أما السلطات الدينية الكاثوليكية أي الأساقفة، فقد وقفت عاجزة ما عدا بطرس رئيس دي كلارفو الذي شن على رأس رهبانه وبانن من البابا، حربا ضد الكاثاريين في جميع أنحاء لانجدوك قتل و عذب فيها الكثيرين منهم ⁽¹⁾. و في هذا الجو اعتلى البابا اينوسنت الثالث كرسي البابوية في عام 1198. وكان من الطبيعي أن يبدي البابا الجديد اهتماما خاصا بالنقمة المخيف الذي حققته الكاثارية في كل من فرنسا وإيطاليا ⁽²⁾ حيث قال :- " ما فائدة حرب صليبية توجه إلى فلسطين إذا ظل هؤلاء الألبيجنسيون يتضاغفون في قلب العالم المسيحي؟" ⁽³⁾ و لكنه فضل أن يبدأ باستئناف جهود الإقناع التي جربها البابا ألكسندر الثالث قبله و فشل. و إذا كان نائبه "بطرس دي كستلنو" (Pierre de Castelnau) قد نجح في عام 1203 في أخذ موافقة أهالي لانجدوك على أن يقوموا بتسليم أصحاب الكاثارية للسلطات الكنسية لمحاكمتهم. فان هؤلاء الأهالي لم يفوا بوعدهم.

وفي نفس الوقت رفض الملك فيليب أوغسطس (Philippe-Auguste, 1180-1223) نداءات البابا أنوسنت باستخدام القوة ضد الألبيجنسيين بالرغم من وعود البابوية له بمنحه أملاكهم الواسعة في جنوب فرنسا بعد إبادتهم. وتساءل السادة الإقطاعيون في الجنوب الفرنسي على طلبات أنوسنت الثالث منهم قائلين "كيف نقتلهم وقد نشأنا معهم، ومنهم بعض أهاليها، كما نراهم يعيشون بيننا معيشة الصالحين" ⁽⁴⁾.

(1) عجوز غني كان له تأثير قوي على سكان الأندوك حيث كان يشتر الكاثارية. أنظر Des Vaux deCernay

P., op.cit., p.75

(2) Peyrat N., *Histoire des Albigeois*, p.11.

(3) . راجع ويل ديورانت، نفس المرجع، ص 148.

(4) . أنظر Oldenbourg (Z.), op.cit., p. 100; Niel, Roché, op.cit., p.154.

ووصل إلى إقليم لانجوك، في تلك الأثناء، الاسباني دومنيك دى غوزمان (Dominique de Guzman-1221-1170) مؤسس الهيئة الرهبانية المعروفة باسمه-الدومينيكان-(dominicains) مرسولا من البابا أنوسنت الثالث في بعثة مهمتها القضاء على الحركة الألبيجنسية بكل الطرق السلمية وغير السلمية (1). وقد ظل دومنيك إحدى عشرة سنة من 1205 إلى 1216 يناضل ضد الألبيجنسيين في جنوب فرنسا. وقد اقتنع ذلك القديس الاسباني في المرحلة الأولى من هذا النضال بأن السبيل الأمثل للتغلب على الألبيجنسية لا يأتي إلا عن طريق مجادلتهم بالتلي هي أحسن ومقارعة الحجة بالحجة، ومقابلة القوة الخلقية عندهم بقوة خلقية مساوية يتحلى بها رجال الدين الكاثوليك. لقد انفتحت دومنيك حوله فأبصر أن الألبيجنسيين بجنوب فرنسا سوف يتغلبون بتقشفهم وروحانيتهم على المبعوثين البابويين ورؤساء الأديرة الذين أفسدتهم نعومة الحياة وسوف يعجز هؤلاء وأولئك عن إرجاعهم إلى حظيرة المسيحية. ومن أجل ذلك أخذ دومنيك على نفسه أن يعيش طوعا واختيارا عيشة المتقشف، ودعا من خلال رسائل التأثير في الناس علما بأن هؤلاء الأعضاء هم الذين سيقومون بدور قضاة محاكم التفتيش ضد الألبيجنسيين فيما بعد (2).

ومهما يكن من أمر، فمجهودات الراهب الاسباني دومنيك السلمية لإقناع أصحاب البدعة الألبيجنسية بخطأ معتقدتهم، كانت أثارها محدودة شأنها شأن محاولات الإقناع التي سبقتها.

وقد حدث في 15 جانفي من عام 1208 أن اغتيل بطرس دي كستلنو بيد مجهول في نواحي مدينة تولوزة في طريق عودته إلى روما لتقديم تقريره عن مهمته للبابا. وكان أن اعتبر البابا أنوسنت الثالث أن هذه الجريمة موجهة لهيبة

(1) Niel, op.cit, p.100

(2) . أنظر فيشر هيربرت، المرجع السابق، ص 250.

الكنيسة وهيئته الشخصية بصفته رئيس هذه الكنيسة والرجل المسؤول عن إرسال المقتل إلى فرنسا. وقرر من تلك اللحظة أن يتخذ موقفا أكثر حزما وتشددا وأخذ يعمل بطريقة جدية على إعداد حملة صليبية تضع حدا نهائيا لهذه المشكلة⁽¹⁾.

قرر البابا أنوسنت الثالث بعد الفشل الذي أصاب جميع محاولاته السلمية، شن حرب ضد الكاثاريين الألبيجنسيين، فأمر أساقفة "ناربون" (Narbonne) و آرل (Arles) و"أكس" (Aix) وغيرهم من الأساقفة بجنوب فرنسا، فضلا عن أمراء هذه الأقاليم وسائر أسيادها الإقطاعيين، والملك فيليب أغسطس نفسه بالقيام بحملة صليبية ضد الكاثاريين وهدم كل أشكال المقاومة⁽²⁾.

وهكذا تكون جيش الحملة الذي ساهمت فيه سائر الأقاليم الفرنسية وقد عبرت القوات الصليبية بقيادة سيمون دي مونتفورت (Simon de Montfort) نهر الرون (Rhône) في جويلية 1209، ثم مرت بمدينة مونبيلي (Montpellier)، بمدينة بيزي (Béziers) حيث وقعت مذبحه كبرى لن ينساها التاريخ⁽³⁾. وحضن سكان مدينة بيزي تسليم الهراطقة الموجودين في مدينتهم إلى الصليبيين الذين لم يلبثوا أن اقتحموها وبثوا الرعب في سكانها من غير تفريق بين من هو ألبيجنسي ومن هو كاثوليكي منهم. قتلوا في كنيسة القديس مادلين وحدها كما قيل سبعة آلاف نسمة لجأوا إليها⁽⁴⁾. قد حقق الصليبيون في هذه المدينة انتصارا عجيبا وقتلوا جميع سكانها في وسط صيحة أحد قادتها الدمويين، وهو

⁽¹⁾Niel, Roché..., op.cit., p.160.

⁽²⁾Guillaume de Tulède, *La chanson de la croisade contre les Albigeois*, trad Chabot M, edit Champion, t.1, Paris, 1931, p.19

⁽³⁾Phillips Jonathan, *Une histoire moderne des croisades*, édit Flammarion, Paris, 2009 pp.252-254.

⁽⁴⁾ Ibid., p.22; Des Vaux De Cernay, op. cit., p.79

"أملريك" (Amalric) رئيس دير السسترسيين (Cisterciens) في مدينة سيتو (Citeaux)، القائلة: أعموهم كلهم وسيروى الله نوبه" (5).

بعد أن قضى الصليبيون على سكان مدينة بيزي وأشعلوا فيها النيران غادروها إلى مدينة ناربون، التي أنقذت نفسها من الحرب، بتسليم كل ما طلبوه من قلاع وتحصينات لهم. وعندئذ تقدم الصليبيون في أول أغسطس عام 1209 إلى مدينة كركسون (Carcassonne) حيث كان غزو القسم الأول من المدينة أمرا سهلا بالنسبة للصليبيين، وكان القسم الثاني منها قاوم بعنف، وكان حاكم بيزيني وكاركسون "ريموند روجي دي ترانكفيل" (Raymond Roger de Trancavel) قد شارك في المعركة في هذه المدينة التي اضطر إلى اللجوء إليها بعد حرق بيزي. وقد تمكن الصليبيون من محاصرته ورجاله. فاستسلم للصليبيين على أمل أن يتمكن من مفوضتهم بسلام، فسجنوه ومنحوا مقاطعته لفراس أبرز شجاعة فائقة أثناء حصار المدينة هو سيمون دي مونتفورت (Simon de Montfort) (1) قائد الحملة. ولم يلبث حاكم بيزي وكركسون أن توفي في سجنه سنة 1209. وكان الاستيلاء على مدينة كاركسون نهاية لفترة ساد فيها الرعب جنوب فرنسا. ولقد حارب سيمون دي مونتفورت الهرطقة، بعد ذلك أكثر من ثماني سنوات في إقليم لانجدوك بجنوب فرنسا.

بعد أن بسط سيمون سيطرته الكاملة على كاركسون والحصون التابعة لها، تقدم إلى مدينة تولوز مقر الكونت رايموند السادس (Raymond VI , 1194-1222) وفرض حولها حصارا قويا. ولكنه لم يلبث أن اضطر بعد اثني عشر يوما إلى رفع هذا الحصار أمام مقاومة أهالي المدينة وتوجه نحو مقاطعة فواكس (Foix) حيث أثار الهلع في نفوس سكانها وأحرق وهدم قصورها ومبانيها. غير أن كونت

(5) Phillips (J.), op.cit., p 253.

(1) Des Vaux de Cernay (P), op.cit., p.130.

تولوز ريموند السادس، لم يلبث أن تحرك لإنقاذ المعتدي فقد وصلت للجيش الصليبي الذي يقوده سيمون دي مونتفورت مساعدات مادية من حلفائه في الشمال حسم بها الموقف في المنطقة لصالحه ورجع رايmond التولوزي إلى مدينته عام 1212.

بدأت الحملة الصليبية منذ ذلك الحين تأخذ صورة استعمارية لصالح "مونتفورت"⁽¹⁾ الذي رأى في هذه الحرب الدينية سوى وسيلة لتجريد الإقطاعيين في لانجوك من ممتلكاتهم⁽²⁾، يفتح هذه الممتلكات سادة جدد من حلفائه الشماليين. ولما كان رايmond السادس كونت تولوزة عاجزاً عن منعه، فقد لجأ وأتباعه وأهالي مقاطعته إلى ملك أرغونه بطرس الثاني طالباً مساعدته⁽³⁾. وكان أن قدم الملك الأرغوني طلباً للبابا أنوسنت الثالث يدعو فيه إلى إخراج مونتفورت من مقاطعة كونت تولوزة ولكن البابا رد على طلبه قائلاً: "أنتك أخطأت التصرف معنا ومع نفسك" ... و كان هذا الرد من جانب البابا كافياً ليقرر ملك أرغونه الخروج بجيشه لنصرة رايmond السادس في مقاطعة تولوزة⁽⁴⁾.

و بالرغم من ضخامة جيشه، فقد انتصر عليه الصليبيون بقيادة سيمون دي مونتفورت وقتلوه⁽⁵⁾، وقضى الصليبيون بعد ذلك ثلاثة أسابيع في الاستيلاء على أهم حصون التابعة لكونت تولوزة وفيها حصن تولوزة نفسه.

وكان أن استسلم الكونت رايmond السادس وسائر حكام المقاطعات المغتصبة سنة 1241، على أمل استرجاع أراضيهم، وأقسموا بأنهم سوف يحاربون الهرطقة أينما تسربت. غير أن سيمون دي مونتفورت أبى أن يرد معظم ما استولى

(1) Oldenbourg (Z.), op. Cit. p. 161 : أنظر

(2) Phillips (J.), op.cit., p.254 : أنظر

(3) Griffe (E.), *Le Languedoc cathare*, t.3, p.75. : أنظر

(4) Ibid, p. 81

(5) Dom Vaissète, op. Cit., p. 252 ; Oldenbourg, Z., op. cit., p. 177 : أنظر

عليه إلى أصحابه، و وزعه على أسياذ شماليين مواليين له. كما أصر على مواصلة الحرب ضد أصحاب البدعة الأليجنسية كي يتمكن من ضم بقية الأراضي التي لم يستول عليها بعد. وعندما تقدم أصحاب هذه الأراضي من السادة الإقطاعيين بشكاوهم للبابا، لم يرد عليهم ⁽¹⁾ في الوقت الذي وصل فيه الأمير لويس (Louis) موفدا من قبل أبيه الملك فيليب أغسطس (Philippe Auguste 1165-1232) إلى المنطقة، قام بهدم أسوار مدينتي ناربون وتولوزة و أقرسيمون ذي مونتفورت حاكما على ما استولى عليه بما في ذلك أملاك كونت تولوزة عام 1215.

و لم يلبث أن عقد البابا أنوست الثالث في نفس العام، مجمعا في قصره بروما المعروف بقصر لاتران (Latran) حضره جميع السادة الإقطاعيين الذين أنتزع سيمون أراضيهم، وعدد كبير من الأساقفة ورجال الكنيسة و مندوبو مونتفورت للنظر في تطورات الحرب الصليبية ضد الأليجنسيين ⁽²⁾. و طلب بعض الحاضرين من رجال الكنيسة من البابا أن يأمر بإرجاع كل الأراضي المغتصبة لأصحابها بما فيهم الكونت رايموند السادس، غير أن البابا رفض هذا الطلب مؤكدا بأن هذه الأراضي أصبحت ملكا لسيمون دي مونتفورت. وفي سنة 1216، سافر سيمون دي مونتفورت إلى شمال فرنسا واستقبل من الممثل الشرعي لكل من الكنيسة والسلطة المدنية في إقليم لانجوك. وفي العام التالي أي عام 1217 سافر سيمون دي مونتفورت إلى الشمال واستقبله الملك فيليب أغسطس في باريس بترحاب كبير ⁽³⁾ و صدق له على قرار منحه ناربون وتولوزة وسائر الأملاك ⁽⁴⁾.

ولكن الأمور تطورت في نفس العام عقب وفاة البابا أنوست الثالث مباشرة لغير صالح سيمون دي مونتفورت. فقد انتصر عليه رايموند السابع - ابن

(1) Des Vaux de Cernay : op. cit., p. 177 أنظر

(2) Ibid, , p. 179 أنظر

(3) Des Vaux de Cernay Pierre , op. cit., p. 180 أنظر

(4) Z. Oldenbourg, op. cit., p. 177 أنظر

رايموند السادس - (Raymond VII : 1222-1249) و استولى على الحصون التابعة له، واضطر دي مونتفورت أن يعقد معه الهدنة. وفي نفس العام - أي عام 1217- تمكن الكونت رايموند السادس من استرجاع مدينة تولوزة نفسها ودافع عنها ضد هجمات سيمون دي مونتفورت -خمس عشرة شهراً⁽¹⁾ إلى أن قتل دي مونتفورت في 25 جوان عام 1218 خلال إحدى هذه الهجمات⁽²⁾. وبموته وتولية ابنه أموري (Amaury) من بعده، يبدأ فصل جديد من فصول الحرب الصليبية ضد الألبيجنسين في جنوب فرنسا.

وصل إلى جنوب فرنسا الأمير لويس ابن الملك فيليب أغسطس في سنة 1219، موفداً من أبيه والبابا هونوريوس (Honorius III) خليفة أنوسنت الثالث، للقضاء على الهرطقة الألبيجنسين وحلفائهم واسترجاع ما استولى عليه الكونت رايموند السابع التولوزي. وقد ضم الأمير لويس قواته إلى قوات أموري دي مونتفورت، وقامت قواتهما المشتركة على الفور بإقتحام مدينة مارماند (Marmande)، واستولت عليها بعد منبحة رهبة قتل فيها معظم سكانها. ثم هيمنت هذه القوات على مدينة تولوزة وأقامت عليها الحصار في 16 جوان 1219 ولكنها عجزت عن اقتحامها. وانسحب القائدان. وقد طلب البابا هونوريوس الثالث من الملك فيليب أغسطس إعطاء دفعة جديدة للحرب الألبيجنسية ولكنه رفض في حين انتهز رايموند السابع فرصة توقف النشاط الصليبي فاستولى على مدينة كاركسون التي كانت القوات الصليبية قد بسطت نفوذها عليها في عهد سيمون دي مونتفورت.

وفي 14 جويلية 1223 توفي الملك الفرنسي فيليب أغسطس وتولى ابنه لويس الثامن (Louis VIII). ففتح معه البابا هونوريوس الثالث المفاوضات من أجل

(1) أنظر A. Longnon, op. Cit., p. 95

(2) أنظر Ibid, op. Cit., p. 96

تدخل الجيش الملكي الفرنسي في الحرب الألبيجنسية، وخاصة بعد أن رفض الكونت رايمود السابع الاستجابة لطلب البابا بتطهير إمارته من الهرطقة الكاثاريين. غير أن هذه المفاوضات انتهت إلى الفشل بسبب أطماع الملك التوسعية.

وفي 29 نوفمبر 1225 أقيم في مدينة "بورج" (Bourges) الفرنسية مجمع ديني ضم عددا من رجال الكنيسة الذين آتوا من شمال فرنسا وجنوبه (1)، وقرر فصل الكونت رايمود السابع عن الكنيسة بسبب مؤازرته للهرطقة ومواصلة الحرب الصليبية بقيادة ملك فرنسا نفسه. (2) وفي ماي 1226، وصل قائد الحملة، الملك لويس الثامن، إلى مدينة ليون وفيها تقدم إلى أفنيون (Avignon) فحاصرها إلى أن استسلمت له بعد ثلاثة شهور من الحصار. و خلال ذلك أعلنت كل من مدن كاستر (Castres) وبويلورانس (Puylaurens) وكركون تعلقها بالملك.

ثم فتح الملك كل المدن الكبرى الموجودة على طريق تولوزة قاصدا الوصول إلى المدينة نفسها التي طالما قلوبته (3). ومع ذلك فقد منعه المرض الذي أصيب به وجيشه في الطريق من الوصول إلى هذه المدينة. واضطر إلى العودة إلى باريس بعد أن عين حاكما من قبله على مدينة كركسون وكلفه بإعادة الهدوء إلى البلاد التي تم فتحها. ثم توفي بعد أسابيع قليلة من ذلك في عام 1226.

اتخذ سكان لانجدوك من وفاة الملك فرصة للثورة على الفرنسيين الملكيين الموجودين في المنطقة ولكن أرملة لويس الثامن "بلانش القشتالية" (Blanche de Castille) التي كانت تقوم في الوقت نفسه بمهمة الوصية على عرش ابنها القاصر لويس التاسع (Louis IX) أدركت أهمية الحملة لضم إقليم لانجدوك إلى تاج فرنسا مهما

(1) Griffe (E), op.cit., t.3, pp. 137-138.

(2) Oldenbourg (Z.), op.cit., p.214; G. de Tulède, op.cit., p.79.

(3) Madaule (J.), op.cit., p.149. انظر

كانت الخسائر. وقد شجعها على المضي في هذه الطريق البابا هونوريوس الثالث ولم تلبث الوصية الأرملة أن بعثت بمساعدات مادية كبيرة لحاكم كركاسون وأمرته بغزو تولوزة⁽⁴⁾. ولم تكن للكونت رايموند السابع الوسائل اللازمة للدفاع عن أراضيها فاستطاع حاكم كركاسون أن يدمر ويخرب كل القرى والمدن القريبة من تولوزة واضطر الكونت إلى الاستسلام والتوقيع على شروط كثيرة حطمتها وهي الشروط التي تضمنتها معاهدة "مو". (Meaux).

تأكدت الوصية بلانش القشتالية أن غزو مقاطعة تولوزة بالسلح يؤدي إلى خسائر كبيرة. وكان الحل الوحيد اللجوء إلى الدبلوماسية⁽¹⁾ فجمعت الوصية في مدينة "مو" بمساعدة النائب البابوي "رومان دي سانت أنج" (Romain de Saint Ange) عددا من رجال الدين العاملين في شمال فرنسا وجنوبها على هيئة مجمع مدني-ديني لمناقشة القضية الألييجنسية. وقد اشترك كونت تولوزة وأتباعه في هذا المجمع الذي انتهى بشروط أهمها الإخلاص للملك والكنيسة مدى الحياة والتخلص بأية طريقة من الهرطقة، والقيام بمنح مبلغ مالي⁽²⁾ لكل من يكشف عن هرطقي، وعدم استخدام عمال كانت لهم علاقات مع الهرطقة الكاثاريين في الأراضي التابعة لمقاطعة تولوزة، وإبقاء سلطة الكنيسة على الأملاك التي استولت عليها أثناء الحرب الصليبية. وإقامة علاقات ودية مع الذين انتموا للصليبيين، والموافقة لأخ الملك لويس التاسع المدعو ألفنس دي بواتيه (Alphonse de Poitiers: 1220-1271) على الزواج من بنت الكونت رايموند السابع، علما بأنها الوارثة الوحيدة للأملاك الكونت، وهم حصن تولوزة والتنازل للملك لويس التاسع عن جميع القصور التي لم تستول عليها قوات والده. وهكذا لم يبق للكونت رايموند السابع، بعد عقد المعاهدة، سوى مناطق تولوزة وكيرسي (Quercy) وأجنيه (Agenais)

(4) G. de Tudèle, op.cit., p.76. انظر

(1) Oldenbourg (Z.), op.cit., p.250.

(2) Griffe (E.), op.cit., t.3, pp.144-145 .

التي كانت تحت مراقبة حامية فرنسية مقرها مدينة تولوزة، وتعالل هذه المناطق ثالث ما كان في السابق من أملاك الكونت (3).

دعا النائب البابوي سانت أنج بعد توقيع المعاهدة إلى عقد مجمع في مدينة تولوزة يشارك فيه رجال الدين المقرين في الجنوب لبحث وسائل تأسيس جامعة كاثوليكية في مدينة تولوزة، وتأسيس منظمة قلادة على القضاء على الهرطقة الكثاريين.

ولما كان كونت تولوزة رايوند السابع لا يرغب في استمرار التخلل الأجنبي في أقاليمه فقد قرر أن يتولى بنفسه محاربة الهرطقة أينما كانوا، ومن ثم فقد ألقى القبض على فئات الكثاريين في مدينة تولوزة وأرغم الباقين على الاختفاء (1).

محكمة التفتيش:

منح البابا الإخوان المبشرين أو "الدومنيكان" في سنة 1233، سلطة رئاسة محكمة التفتيش ضد الأبيجنسيين، وأعطاهم الحرية التامة في التصرف في منطقة لاتجدوك، فاستعملوا هذه الحرية بطريقة وحشية (2) لا تتفق وكونهم مبشرين بتعاليم المسيح التي تدعو إلى التسامح والمحبة.

وفي الحقيقة فلن الكونت رايوند السابع التولوزي لم يقبل حملة الرعب التي شنتها محكمة التفتيش في لاتجدوك فأمر بطرد قضائتها من الدومنيكان في عام 1235، ولكنه لم يلبث أن وافق على إعادتهم أمام تهديد البابا له بقطع الصلة مع

(3) Niel (F.), op.cit., pp. 93-94. انظر

(1) Philips (J.), op.cit., pp. 225-256.

(2) Niel (F.), op.cit., p.294. انظر

الكنيسة (3) . فأمرت المحكمة بالقبض على مذات المتهمين من الألبيجنسيين في مدينة تولوزة نفسها وحكمت عليهم الحرق حتى الموت.

وكانت الخطوة الثانية في مدينة ناربون، حيث كان أعضاء المحكمة يملكون على أماكن اختباء الكاثاريين و يقدمونهم ضحايا على النار فوراً. ومع ذلك فقد هرب الكثيرون من الكاثاريين إلى قلعة حصينة تسمى قلعة مونتسغور (Montségur)، تقع فوق جبل عال بالإقليم اسمه الجبل المقدس احتموا داخل جدرانها (1) و طلب كل من الملك لويس التاسع والبابا هونوريوس الثالث من الكونت رايموند السابع التولوزي في عام 1249، ضرورة حصار القلعة وإرغام المتحصنين بداخلها على الاستسلام. ولما فشل الكونت رايموند في مهمته، أعلن تبرؤه من معاهدة مو وأيده كل من ملك أروغنة وقشتالة وإنجلترا وبعثوا له بمساعدات مادية (2) .

وفي سنة 1242، حين كان المفتشون في اجتماع في مدينة أفينيون هجمت قوات كونت تولوزة على مجلسهم وقتلت منهم عددا كبيرا. وكانت النتيجة الحتمية لذلك أن طرد الكونت رايموند السابع من الكنيسة الكاثوليكية. فلم تبق له إلا وسيلة واحدة وهي الاستسلام وطلب العفو من الكنيسة والملك وأخيرا عقد السلام الذي تم في مدينة لوريس (Lorris) بفرنسا سنة (3) 1242.

تقدمت القوات المشتركة إلى قلعة مونتسغور في 1243- آخر معازل الكاثاريين الألبيجنسيين. وبالرغم من أن هذه القلعة لم تكن تضم أكثر من ثلاثمائة منهم حسب بيانات قضاة محكمة التفتيش فقد صمدت مدة طويلة وبشجاعة عجيبة (4).

(3) Ibid., p.295. أنظر

(1) Peyrat (N.), op.cit., pp.3-4. أنظر

(2) Niel (F.), op.cit.p.292-296. أنظر

(3) Dom Vaissète, op.cit., p.215. أنظر

(4) Oldenbourg Z, op. cit. p. 215 أنظر

ولقد قام أسقف ألبي بتكوين جيش كبير وجهه لمساعدة جيش الحصار الفرنسي حول مونتسغور (5) فتقوى به هذا الجيش وضيق الخناق على الكاثاريين في القلعة فطلبوا المفاوضة.

وقد سلم الكاثاريون بالفعل أنفسهم ، ولكن محكمة التفتيش لم تعد تهتم بتخفيف الحكم عليهم فاجتمعت في يوم 16 مارس 1244 وحكمت بلاعدام حرقا على ما بين 210 و 215 منهم حسب البيانات (1) . وقد أخرجوهم من القلعة مربوطي الأيدي إلى المحرقة مباشرة، بما في ذلك العجائز والمرضى والجرحى منهم، وكان ذلك عام 1245. (2)

لم تنته مطاردة الكاثاريين بحرق المتحصنين في قلعة مونتسغور بل استمرت إلى أن عم اكتشاف معقل آخر للكاثاريين تم بحرق المتحصنين في قلعة كريبوس (Quéribus)و في سنة 1256 احرق جميع من تم القبض عليه منهم. ولم يتمكن الكاثاريون من الوقوف ضد القوة العظمى المتمثلة في محكمة التفتيش ورجالها، فاضطر عدد كبير منهم إلى اللجوء إلى شمال إيطاليا واسبانيا وخلص جنوب فرنسا للملك والكنيسة الكاثوليكية .

استمرت محكمة التفتيش في مهمتها البشعة بعد منبحتي القلعتين وانتشرت فروعها في جميع أنحاء فرنسا وكان ذلك أيام الملك فيليب الوسيم (Philippe le Bel) الذي كان يرغب في تحويل فرنسا إلى أمة ومملكة عظيمنتين.

ولقد ثار سكان لانجوك على الدومنيكان قضاة محاكم التفتيش في عام 1283، في مدينة كركسون وقتلوا عددا كبيرا منهم. وفي سنة 1295، أحرقوا

(5) N. Peyrat, op. cit., p. II. أنظر

(1) De Puylaurens (G.), op.cit., p.248. أنظر

(2) Idem . أنظر

(3) F. Niel ,op. cit., p. 184. أنظر

مجمعاً للدومنيكان في نفس المدينة. وواصلت محكمة التفتيش أعمالها خلال القرن 14 حيث أحرق العديد من السكان سنة 1300 في مدينة ألبى بحجة أنهم كانوا يساعدون الكاثاريين في مقاومتهم للدومنيكان⁽³⁾. وابتداء من سنة 1335، قل عدد الكاثاريين إلى أن اختفوا نهائياً في النصف الثاني من القرن الرابع عشر.

فهل نجحت محكمة التفتيش في إيادة الكاثاريين ؟

يقول أحد المؤرخين⁽¹⁾ أن الحملة الصليبية ضد الأليجنسين قامت على مبدأ توسعي لا دخل للذين في ذلك بل كان غرض فرنسا الاستيلاء على إقليم لانجوك الذي يمثل منطقة اقتصادية هامة.

فمن أهم النتائج التي توصلت إليها الحرب الصليبية ومحكمة التفتيش أن أضعفتا منطقة لانجوك بعد سنوات طويلة من الحرب. فقل الإنتاج الاقتصادي و هلك البلاد وساعت الأوضاع الاجتماعية و أبيدت الثقافة اللانجوكية واللغة المحلية وحلت محلها الثقافة الفرنسية وبعبارة أخرى تحطمت شخصية إقليم لانجوك وإعدم كيانه. هذا من جهة و من جهة أخرى أصبح إقليم لانجوك - الذي كان تابعاً لإمارة قطالونية(Catalogne) و كان له معه ارتباطات قديمة و وثيقة - جزء من محكمة فرنسا التي كانت تمثل في نظر اللانجوكيين سلطة أجنبية مسيطرة.

عقد في سنة 1258، أيام الملك لويس التاسع، معاهدة مع ملك أروغونة وقطالونية تخطى فيها هذا الأخير عن لانجوك لصالح فرنسا⁽²⁾. و من ناحية أخرى ضمت كل الأراضي التي كانت تحت حكم الكونت رايmond السابع عن طريق ابنته، زوجة الفونس دي بواتي، أخ الملك لويس التاسع. وأصبح لفرنسا بهذا منفذاً مهماً على البحر الأبيض المتوسط واشتهر ميناء مدينة مرسيليا (Marseille).

(1) Longnon (A.), *La formation de l'unité française*, p. 121. انظر

(2) Ibid., p. 122. انظر

وهكذا فالبرغم من أن ملك فرنسا تدخل في الحرب ضد الألبيجنيين إلا جزئياً وفي وقت متأخر فقد استفاد من الكنيسة ومن العامل الديني بإقامة مملكة كبرى ازدهرت كثيراً في القرنين الرابع عشر و الخامس عشر في أوروبا الغربية، وأصبحت فرنسا أمة لها حدود واضحة، وخاصة بعد أن اشترى الملك في سنة 1345، من ملك ميورقة جيم الثاني (Jaime II) مقاطعة مونتبيليي (Montpellier) و أتم بها وحدة لانجودوك.

انتصرت السلطان الدينية والدينلوية تحت راية المسيحية على البدع والطوائف المختلفة التي ظهرت في فرنسا وأوروبا الغربية باستخدامها وسائل العنف التي لا تتماشى مع المبادئ الدينية للكنيسة بالناس إلى تراخي أخلاقي وروحي ما زالت فرنسا تعاني منه إلى يومنا هذا. فأدى استبداد الكنيسة ووقوفها ضد الأفكار الإصلاحية أو التحررية إلى ظهور حقد شديد عليها وعلى رجالها وظهور إصلاحات دينية وثورات ضدها بعد فترة من الزمن أشهرها البروتستانتية في القرن السادس و السابع عشر.

فقد انتهت الحملة الصليبية الموجهة ضد الكاثاريين بضم مقاطعة الجنوب إلى مملكة فرنسا. وفي هذا المعنى يرى أحد المؤرخين⁽¹⁾ أنه من الصعب أن نخفي بأن عظمة فرنسا والكنيسة كانت نتيجة عملية الحرق والإبادة.

يبدو لنا من خلال هذه الحرب الوحشية التي دامت سنوات، أن للحركة الكاثارية ما هي إلا ستار تستر وراءه المحاربون الصليبيون لتحقيق هدفهم السياسي وهو الاستيلاء على مناطق خصبة كانت خارجة عن نفوذهم.

والجدير بالذكر هنا أن انضمام المنطقة الجنوبية المتمثلة في إقليم اللانجودوك تسجل حادثاً هاماً في توسيع المملكة الفرنسية وخاصة بعد أن ضمت إليها منطقة "

(1) F. Niel, op.cit., p.7. انظر

نورمانديا " التي فتحت لها منفذاً على البحر في الشمال واحتلال الجنوب منح لها منفذاً على البحر المتوسط.

و من هنا يتضح لنا أن الحملة الصليبية لم تكن فقط دينية بل كانت سياسية واقتصادية بالدرجة الأولى.

بibliographie:

- ديورانت (ويل)، قصة الحضارة، م 4ت الجامعة العربية ط 2، القاهرة 1967 .
 Des Vaux de Cernay (Pierre), *Historia Albigensis*, trad. B.Guébin, édit. Vrin, Paris, 1951
 Griffie (E.), *Les débuts de l'aventure cathare au Languedoc*, Paris, 3 tomes, 1969, 1971, 1973
 Guiraud (J) *L'inquisition au moyen âge*, édit. Picard, Paris, 1935 .Lavissee(E.), *Histoire générale de France*, t.2, Les croisades, édit. A. Colin, Paris, 1893.
 Longnon (A.), *La formation de l'unité française*, édit. A. Picard, Paris, 1922 .
 Madaule (J.), *Le drame albigeois et le destin français*, édit. Grasset, Paris, 1961.
 Niel, Duvernoy, Roche, *Les Cathares*, édit. Delphes, Paris, 1965 .
 Niel (F.), *Albigeois et Cathares*, coll. Que-sais-je?, édit. PUF, Paris, 1965 .
 Oldenbourg (Zoé), *Le bûcher de Montségur*, édit. Gallimard, Paris, 1959 .
 Phillips Jonathan, *Une histoire moderne des croisades*, édit. Flammarion, Paris, 2009 .
 Pike (R.), *Dictionnaire des religions*, édit. PUF, Paris, 1954.
 Puylaurens (Guy de), *Chanson de la croisade albigeoise* in Dom Bouquet, *Historiens de la Gaule et de la France*, Paris, 1855 ...
 Tulède (Guillaume de), *La chanson de la croisade contre les Albigeois*, trad. E.M.Chabot, édit. Champion, Paris, 1931, t.1
 Vaissette (Dom), *Histoire générale du Languedoc*, Toulouse, 1879, t.3.